جـوع

أما وزارتنا[1] شفيقة على الفقراء ، رفيقة بالبائسين ، تتولاهم بالبر الذى لا حد له ، وتشملهم بالعطف الذى لا ينتهى إلى غاية ، وتذود عنهم ألم الجوع ، وترد عنهم المشقة والضر ، وتغمرهم باليسر والنعيم ، فشىء ليس إلى الشك فيه من سبيل ، إلا أن تكون مكابرا تحب المكابرة ، أو محاربا تتهالك على المراء . وفى أى بلد من بلاد الأرض ترى الفقراء والبائسين رغم هذه الأزمة العنيفة ينعمون بخفض العيش ويأخذون من لذات الحياة ما يريدون وفوق ما يريدون كما تراهم فى مصر الآن تستطيع أن تطوف فى المدن والقرى وأن تجوب أقطار الريف فلن ترى مفلسا ولا مأزوما . ولن ترى شقيا بالحياة ولا يائسا منها ، ولا زاهدا فيها . إنما الناس جميعا فى صفو لا يشوبه كدر ، ولين لا تشوبه قسوة . كلهم فرح مرح ، وكلهم سعيد مبتهج ، وكلهم باسم للحياة ، مقبل عليها ، مستزيد منها . وتستطيع أن تطوف فى القاهرة فترى من مظاهر السعادة واليسر ، ومن آيات النعيم وصفو العيش ما يضطرك إلى أن تسأل نفسك : كيف أعرض الفقراء والبائسون من أهل الأرض عن مصر ؟ وكيف لم يرحلوا إليها ، ولم يتساقطوا عليها وقد أصبحت مصر فى هذه الأيام السود جنة الله فى الأرض من غير شك ولا مراء ؟ لقد كان يسخر فولتير حين صور فى قصة من قصصه المشهورة قطرا من الأقطار الأمريكية يمشى الناس فيه على الذهب ، ويعبث الأطفال فيه بالأحجار الكريمة وتنحط فيه قيمة المعدن والجوهر حتى يأبى الناس أن يتخذوهما أساسا للتعامل أو ثمنا للبيع والشراء .

كان فولتير يسخر حين صور هذا القطر . فلو قد عاش فولتير إلى هذا العهد السعيد الذى نحن فيه لعلم أن سخريته قد أصبحت حقا وأن هزله قد أصبح جدا ، وأن مصر إذا لم يمش الناس فيها على الذهب ولم يعبث الأطفال فيها بالدر والياقوت فإن الناس فيها لا يعرفون ألما ولا ضرا ، ولا يخافون أن يصيبهم ألم أو يمسهم ضر .

لهذا كله عجبت أشد العجب حين أقبل على جماعة من الناس قد أضناهم الجوع

---

(١) كوكب الشرق فى ١٠ - ٧ - ١٩٣٣ .

وانهكهم الحرمان ، وظهرت عليهم آثار السوء وضعفت أصواتهم لأنهم لا يجدون ما يقيم أودهم ويمكنهم من أن يتحدثوا إليك فى صوت ظاهر ممتلىء مستقيم . ولم أشك حين رأيت هؤلاء الناس البائسين المحرومين فى أنهم جماعة من الأجانب الذين مسهم الضر فى بلادهم ، وضاقت بهم الحياة فى أوطانهم ، فأقبلوا إلى مصر يلتمسون فيها اليسر والسعة ، ويفزعون إلى ما فيها من النعيم والرخاء . ولكنى لم أكد أتحدث إليهم وأسمع منهم حتى اشتد عجبى وانتهى إلى أقصاه ، لأنى علمت أن هؤلاء الناس مصريون ، نعم مصريون !! أسمعت ؟ إنهم مصريون يلذعهم الجوع ، وتحرقهم الفاقة ، لايستطيعون أن يأووا إلى بيوتهم لأن لهم نساء وأطفالا يقضون اليوم الكامل لا يصيبون فيه طعاما ولا يظفرون فيه بالنوم . وهم مع ذلك مصريون يعيشون على ضفاف النيل . أتستطيع أن تفسره أو تجد إلى تعليله سبيلا ؟ بؤس فى مصر يجوع له الناس ويأرقون ، ورئيس الوزراء صدقى باشا ، هذا الذى تولى وزارة مصر فعاهد النعيم واليسر على أن يقيما فيها ما أقام هو رئيسا للوزراء .

بؤس فى مصر ، وهذه الوزارة القائمة مشرفة على أمور مصر ، وهى التى مست وادى النيل بعصا سحرية فتحول كل شىء جدب فيه إلى خصب وأصبحت مصر زينة الدنيا وبهجتها ، ومطمع الأمانى والآمال . نعم فى مصر بؤس ، وفى مصر قوم يشقون بالجوع ، لا بالجوع الذى يحسونه هم وحدهم ، بل بالجوع الذى يحسه النساء والأطفال . لم أكن أصدق ذلك ولا أطمئن إليه ، فأخذت أسأل القوم وألح عليهم وآخذهم بالأيمان المحرجة حتى لم يبق لى سبيل إلى الشك فى أنهم صادقون ، وفى أنهم مصريون ، وفى أنهم جماعة من العمال الذين كانوا يعملون فى شركة السيارات ، فلما كان الإضراب وقصة الإضراب حيل بينهم وبين العمل لما شئت من هذه الأسباب التى تقبل أو لا تقبل والتى تجوز أو لا تجوز ، فهم الآن عاطلون وهم الآن جائعون ، وهم الآن يصلون نار البؤس والشقاء . أهم قليلون ؟ قد يكون ذلك وقد لايكون ، فهم بين المائتين والثلاثمائة . وفى عنق كل واحد منهم زوج وصبيان ، وكلهم بائس فهم يبلغون الألف أو يزيدون . وألف جائع فى مدينة القاهرة كثيرون إن كنت تحب العدل والبر والرحمة . وألف جائع فى مدينة القاهرة قليلون إن كنت تريد الإحصاء . وقياس هؤلاء الألف الجائعين إلى عشرات الآلاف ومئاتها أولئك الذين لا يجدون جوعا ولا حرمانا . وسواء كانوا قليلين أم كثيرين فهم ألف وهم ألف من المصريين لا ينبغى بحال من الأحوال أن يمسهم الضر إلى هذا الحد ، ولا ينبغى بحال من الأحوال أن تحرقهم نار البؤس إلى هذا الحد . فإذا تبينت أنهم لا يجوعون ولايرون جوع أهلهم ، لأنهم قصروا

فى العمل أو رغبوا فى الكسل ، وإنما هم يشقون بجوعهم وجوع أهلهم لأنهم طلبوا الإنصاف فردوا إلى القسوة والجور . وإذا تبينت هذا كله عرفت أن لهؤلاء الناس وعلى وزارتنا ، ووزارة الثروة والرخاء ، ووزارة البهجة والصفاء حقا محتوم الأداء . لهم علينا الحق أن يشبعوا بعد جوع وأن يرتووا بعد ظمأ ، وأن تستقر قلوبهم فى صدورهم وألا يسمعوا أنين النساء لأنهم اختلفوا مع شركة السيارات فأضربوا مع المضربين فطاولتهم الشركة ولم تسعفهم الحكومة ، وكان من الحق على الحكومة أن تسعفهم فترفع عنهم الظلم وتحفظ عليهم كرامة المصريين ، حتى إذا بلغ بهم الجهد ما أعياهم وتجاوز طاقتهم عادوا إلى العمل فتلقتهم الشركة مزدرية لهم ملتوية عليهم . وأخذت تفصل منهم من تفصل وتهمل منهم من تهمل حتى انتهى أمرهم من السوء إلى هذه الحال . وكانت الحكومة أثناء الإضراب تريد أن تحمى منهم الشركة وتحمى منهم العمل . وهذا حق الحكومة وواجب عليها ، ولكنها أسرفت فى الاستمتاع بهذا الحق ، وأسرفت فى أداء هذا الواجب حتى استحالت حماية الشركة إلى تعقب المضربين ، واستحالت حماية العمل إلى إرهاق للعمال . ونظر الناس فإذا الحكومة تقبض على العمال فى كثرة غريبة وتحول بينهم وبين الاجتماع والتشاور فى أمورهم . ونظر الناس فإذا الحكومة تمهل الشركة وتعجل العمال . وإذا الحكومة تظهر للشركة لينا لايشبهه إلا ما كانت تظهر للعمال من شدة ، ونظر الناس فإذا الحكومة لا تأخذ الشركة بتنفيذ العقد الذى كان بينها وبين الدولة حين احتكرت هذا النوع من أنواع العمل . والناس ينظرون الآن فيرون مئات من المصريين جياعا ، لايعرفون كيف يردون الجوع عن أنفسهم وعن أهلهم . أليس من الحق على الحكومة أن تنظر إلى هؤلاء الناس نظرة عطف ورفق وبر وإشفاق ؟ بلى ولكن زعموا لنا أن الشرطة مازالت تتبعهم وتراقبهم ، وأنهم معرضون فى كل لحظة لتلقى الإنذار الذى يتلقاه المتشردون . يجب أن يفكر وزير الداخلية فى هؤلاء الناس وأن يراجع فى أمرهم شركة السيارات . فإذا كان الانجليز يحمون الأجانب فى مصر ومنهم أصحاب هذه الشركة ، فلا يقصرون فى حمايتهم بل يغلون . فقد يكون من الحق على المصريين أن يحموا مواطنيهم ، لا نقول فى غلو وإسراف ، وإنما نقول فى غير تفريط ولا تقصير .

وإذا كان للأجانب من مدير الأمن الأوربى ركن شديد يأوون إليه ، فمن الحق أن يكون للمصريين من وزير الداخلية ركن شديد يأوون إليه .

إن من العار أن يجوع ألف من أهل القاهرة لا لشىء إلا لأن خلافا شجر بين العمال المصريين وبين شركة أجنبية فليفرغ وزير الداخلية لأمر هؤلاء الناس ساعة من نهار ، وليكن فى هذه الساعة صاحب حزم وعزم وإنصاف ، ولعله يستطيع .